الاحلام وتولدها ونموها

عود والتقاد

قرأت المقالة المدرجة في العدد الماضي من المقتطف واطّلعت قبلاً على كل ما كتبتم ونقلتم عن تجلي الارواح وانتقالها واستحضارها وكنت كما قرأت مقالاً في هذا الموضوع تحدثني النفس بقول كلمتي فيه تاجم خوف الشطط في موضوع غامض وتوهمًا ان الباحثين فيه هم من كبار رجال العلم لاسيما وانكم تذكرون في من تنقلون عنهم لوردات واساتذة يرن صدى اسمهم في الآذان رنة كبرى ويقع في النفوس موقعًا عظيمًا . وبعد تردد طويل عولت على ان احشر نفسي في جملة من كتب في هذا الموضوع لاسيما وانهُ خيالي اكثر منهُ علمي وان الباحثين فيهِ لا يرجعون الى القواعد العلمية الثابتة كما يرجع اليها علماء الطبيعة والرياضيات

قد يكون بعض الذاهبين هذا المذهب من نوابغ العصر ومن كبار العلماء ولكن النبوغ ينحصر في قسم من المدركات العقلية ويحط سائرها بدليل ما نرى من نبوغ البعض في فرع من العلم وتقصيرهِ ونعمتهِ في الفروع الاخرى عدا عن ان النبوغ والجنون متحادان باتفاق علماء النفس والفيسيولوجيا والمسافة بينهما قريبة فاذا قال نابغة قولاً او زعم زعمًا خارجًا عن حد نبوغهِ لا يستلزم نبوغهُ التسليم بهِ على وجههِ بل يجب انْ يعد زعماً كزعم ايّ كان من الناس قابلاً للنقد والاعتراض . والتسليم بهذا الزعم لصدورهِ من شخص علت منزلتهُ في البيئة التي هو فيها وهم غالب على العامة . يؤيد ذلك اختيارنا اليومي ودرس تاريخ الفلاسفة الذين يكونون غالبًا عرضة لهزء كل من يخالفهم ويعاشرهم حتى لهزء الصغار والاحداث لما يظهر من شذوذهم العقلي والادبي

ثم ان تجلي الارواح مسئلة قديمة جدًّا قال بها الاقدمون منذ الوف من السنين واتصل البحث فيها من مئات من القرون وهي لا تزال على ما كانت عليهِ من الغموض والابهام . ولا يعقل ان مسألة مهمة كهذهِ ذات علاقة كبرى بحياة الانسان ومستقبلهِ تبقى غامضة قرونًا عديدة ولا ينكشف سرها رغم مواصلة البحث فيها كما انكشفت اسرار العلوم الطبيعية وارتقى بها نظام الاجتماع الى ما يقضي بالذهول ويفوق حد التصديق والمعقول . ان بقاء هذه المسألة غامضة دليل عليها انها وهمية

واذ تمهد ذلك نأتي على ذكر بعض الحوادث التي من قبيل تجلي الارواح ومعرفة الغيب للمقارنة بينها وبين ما ذكرتم في العدد الماضي من المقتطف ومن ثم نأتي على تعليلها

الحادثة الاولى . حدثت في سنة ١٨٧٢ اذ كنت في المدرسة ادرس الفلسفة الطبيعية وذلك اني ذكرت ابنة عم لي ثم اخذت اتذكرى تطور وتتدرج الى ان تصورتها ميتة وموضوعة في نعش في فناء دارها الواسع والنادبات حولها يندبنها والعربان تأتي افواجاً بخيولهم وهوادجهم لتعزية زوجها وذويها فأثر في هذا التخيل تأثيراً عظيماً وتمثلته واقعاً فصرت ارى ما ذكرت امام عيني فضاق صدري ولم اعد افهم درسي فحاولت صرف هذا الوهم فلم ينصرف وبعد يومين اتاني خبر موتها

الحادثة الثانية . حدثت سنة ١٨٧٧ وكنت لا ازال في المدرسة مدة العطلة المدرسية . أصبت بانزعاج عصبي وشعرت بكدر وضغط عظيمين وبعد يومين من هذا الاضطراب تصورت ابن اخي الوحيدة وهو وحيد ايضاً مريضاً واخذت ارقب مدخل المدرسة لعلي ارى رسولاً من بلدي يطمئنني عنهُ . وانا كذلك واذا بالرسول على فرس لصهري يدعوني لمعالجة ولدهِ فامتطيت الفرس ونهبت الطريق نهباً فوجدت الولد مريضاً مرضاً سليماً شفي منهُ بسهولة

الحادثة الثالثة . حدثت سنة ١٨٨٥ وكنت قد ذهبت الى بعلبك لمعالجة مريض واقمت فيها بضعة ايام فاستغرقت مرة في الخيال وتخيلت زوجتي خرجت من بيتها لزيارة احدى نسيباتها فاكرمتها هذه غاية الاكرام وقدمت لها انواعاً من المربيات وحدث وهي راجعة ان التقت بجمال محملة حطباً فصدمت كتفها عوداً من الحطب احدث في ثوبها خرقاً مثلثاً فرجعت في اليوم التالي وكان ما تخيلتهُ حقيقةً

الحادثة الرابعة . حدثت سنة ١٨٨٧ وكنت في بيروت غائباً عن بيتي نحو شهر او اكثر فاضطربت يوماً اضطراباً شديداً وتصورت ابني الطفل مريضاً وامهُ تبكي بجانبهِ . واتاني كتاب منها في اليوم التالي ينبئني بمرضهِ وشفائهِ

التعليل عن هذه الحوادث سهل جداً ويرجع فيهِ الى العمل الدماغي . اما الحادثة الاولى فيزعم اصحاب القول بتجلي الارواح ان روح ابنة عمي انتقلت لتعلني بموتها واما الحوادث الثلاث الاخرى فليس فيها ما يحقق الزعم بانتقال الروح ولا بد ان يكون تعليلها وتعليل الاولى واحد

الدماغ مخزن للمدارك ترتسم فيهِ صور المدركات التي ترد اليهِ بطريق المشاعر فتخزنها الذاكرة في خزانتها للرجوع اليها عند الحاجة وتكون تلك الصور كثيرة الوضوح وشديدة الاثر بالنسبة الى تكرارها وشدة تأثيرها . فالدماغ من هذا القبيل يشبه اورق الحساس في

التصوير الشمسي فترتسم عليهِ صور واضحة وجلية وبالغة حد الاتقان واخرى مشوهة وباهتة وغير جلية . فالصور الجلية ترسخ في الدماغ وتحفظ في سجلات الذاكرة التي تراجعها عند الحاجة اليها والصور غير الجلية والضعيفة الاثر تمحي شيئاً فشيئاً الى ان يزول اثرها تماماً ولا سيما اذا لم يحدث ما يقضي بمراجعتها ورجوع الذاكرة اليها

فاجتماع الوف من الصور في خزانة الذاكرة يشوش عليها عملها اذا اضطرت الى مراجعتها لاستيضاح بعض الحوادث الماضية كما يشوش العمل على مستخدمي المصالح العمومية اذا طُلب منهُ البحث في سجلات اكلها العث ونسج عليها العنكبوت

اذا عرفنا ذلك عرفنا كيفية تعليل الاحلام فهي عمل من اعمال الدماغ لا نظام فيهِ ولا تنسيق بل هي مثل تقليب دفاتر الدماغ ليلاً تقليباً لا رائد لهُ ولا غاية منهُ لان العقل وهو قائد القوى المدركة كامن في قيلولتهِ وقد ترك اعمال الدماغ فوضى تجري مجراها بدون ترتيب وبلا نظام

مررت مرة ببواب فوجدتهُ نائماً فايقظتهُ ففتح عينيهِ ثم اغمضها فعدت فايقظتهُ فاستيقظ وقال كنت حالماً بك حلماً طويلاً عريضاً ولكنهُ لم يستطع ان يروي ذلك الحلم الطويل العريض مع انهُ ابن لحظة لان حلمهُ كان روّى مشوشة وحوادث غير منظمة كأن عينهُ حالما فتحها رسمت صوري في شبكيتها فنبهت هذه الصورة الجديدة ذاكرتهُ الى رسوم كثيرة محفوظة فيها فظهرت في وقت قصير على هيئة روّى عسر عليهِ ان يرويها . وقد اعدت هذه التجربة في اشخاص كثيرين فكانت النتيجة واحدة

الدماغ ينام بنوم صاحبهِ الاَّ ان وظيفتهُ تبقى عاملة على ضعف وخمول لان الدم الجاري فيهِ يغذي اعصابهُ ويبقي وظيفتهُ عاملة ولكن بدون مرشد على نحو ما ذكر . والاحلام نتيجة عمل الدماغ وقت النوم تهمل وتذكر كلها بدون حفظ وذكر الاَّ ما عقبهُ منها يقظة . وقد يحدث ان الاحلام تسير سيراً منظماً يستلفت انتباه الحالم ونظرهُ فيخيل لهُ ان ذلك التنظيم يرجع الى حادث او بحادث فاذا حدث لهُ ولو بعد مدة طويلة ما يقرب من حوادث حلمهِ طبقها عليهِ وآمن بصدقهِ الاَّ ان الاحلام كما ذكرنا لا تنقطع كل مدة النوم ولكن لا يذكر منها الاَّ ما عقبهُ يقظة وقاد الوهم الى تفسيرهِ وتصديقهِ وهو القليل والنادر منها

والحوادث الاربع المذكورة هي من هذا النوع لانها حدثت ويحدث لكل انسان مثلها بعد الاستغراق في التخيل بحيث يُشغَل الدماغ عن العمل ويلهو العقل عن القيادة فتخول الذاكرة الى التفتيش في دفاترها القديمة فتؤلف رواية اكثر انتظاماً من روايات

الاحلام لان وظيفة الدماغ في اليقظة وبعد الاستغراق في التخيل لا تنعى كما تنعى في النوم. وبهذا يمكننا تفسير الحوادث الاربع المذكورة وما كان من قبيلها

اما تفسير الحادثة الاولى فهو ان ابنة عمي رباها ابي يتيمة وازوجها وجيه من اقاربه ثم اعتلت هي بي في صباي بعد وفاة والدي فكنت اذكرها على الدوام واعلق على مساعدتها في آمالاً كبيرة وقلما مرَّ يوم لم تخطر فيه على بالي فكان ذلك يزيد هواجسي وخوفي عليها وكثيراً ما كنت اتخيلها ميتة فاذعر لهذا التخيل ولكني لا اتذكر من ارؤى الاَّ الاخيرة التي تحققت. واما رؤيتي الناديات حولها فمن التخيلات التي لا بد من وقوعها في مثل هذا الحادث واما رؤية العربات فلاَّني في الغت ذلك في صغري لان وفودهم الى دار زوجها كانت كثيرة فالذكرى اعادت الرؤية

واما الحوادث الاخرى فتتعلق بفرط اهتمامي بالمذكورين فيها. وقد يوجس الانسان خوفاً على من يهتم بهم فيقع ما يخشى منهُ ولكن كثيراً ما يوجس خوفاً بدون ان يعقب خوفهُ محذور. فالحوادث التي يتفق صدقها هي التي تروى وتصبح بتكرار ذكرها حقيقة في ذهن صاحبها ولهذا جرى على الالسنة ان قلب الانسان دليلهُ فدلالة القلب هذه هي نتيجة الاهتمام او الحب المفرط. ولكن كم من مرة يدل القلب على شر مستطير فلا يقع وعلى خير كبير فلا يحصل. فدلالة قلبي على انحراف صحة ابني صدقت مرة ولكن دلالات كثيرة غيرها لم تصدق قط

اما تعليل حادثة امرأتي فهو انها كانت تكثر زيارة نسيبتها ولا بد انها اكثرت من زيارتها مدة غيابي وكنت اعرف ان نسيبتها كريمة مضيافة تقدم لضيوفها انواع المرببات واعرف ايضاً ما يجوز ان يعترض زوجتي في طريقها وكانت هذه المعرفة مطبوعة في دماغي لتكرار حدوثها اليومي فتخيلت ذلك واقعاً فوقع. الاَّ ان كثيراً من تخيلات مثل هذه تخيلتها ولم تقع فلا يجوز ان يتخذ صدق الحادثة الواحدة قاعدة تسير عليها كل حوادث التخيلات

كل اب يشفق على ابنهِ من المرض فاذا غاب عن بيتهِ ثم عاد ورأى ابنهُ معافىً قال الحمد لله فقد كنت موجساً خوفاً عليهِ واذا رآهُ مريضاً قال ان قلبي دلني على ذلك واخذ يسرد على زائريهِ ومعارفهِ دلالة قلبهِ هذه بكل ظروفها وتفاصيلها ويدخل عليها من الملح والبهار ما يجعلها اكثر قبولاً واسهل هضماً عند السامعين كأنهُ يريد ان يثبت ان فيهِ سرَّاً غريباً او قوة عجيبة على معرفة الغيب اما الهواجس التي لا تصح فيغضي عنها او يقول انها من الشيطان

اذا صح تعليلي هذا ولا اخاله الاَّ صحيحاً فهو ينطبق تمام الانطباق على رؤى الاشباح والارواح التي ليست الاَّ عملاً مشوشاً من اعمال الدماغ يؤيد ذلك رؤى العفاريت والجن التي نبتت بسرد الخرافات على الصغار فحفظت رسومها في سجلات الدماغ الى ان يحدث ما ينبشها من مكمنها

هذا اذا فرضنا العقل سليماً من الخلل ولكنهُ قد يكون مختلاً خللاً مستتراً لا يظهر الاَّ بالامعان والفحص الدقيق لان كثيرين من الفلاسفة يصابون بجنون نوعي فان واحداً منهم كان يعتقد ان ساقهُ انواحدة مركبة من زجاج وكان يتقيها جهدهُ خوفاً من الكسر ومنهم من يكون واسع الادراك وكثير المعارف ويعتقد ان روح احد الاولياء تجسمت فيهِ . واخلل الدماغي اما وقتي واما ثابت وفي كلٍّ منهما يرى المصاب بهِ رؤى واشباحاً لا حقيقة لها في الخارج

الدكتور
امين ابو خاطر

آثار ملحم شميل (١)

ومما وجدت لهُ هذه القصيدة وقد سمَّاها « الدهرية » . وكأنهُ نظمها قبل الكلام الذي تقدَّم لهُ (المنشور في العدد الماضي من المقتطف) كما يتَّضح للمتأمِّل في ذلك قال :

حتَّى مَ يا دهرُ تجنوني وتنوي لي ... فيك النَّوى ولسوء لي سوء تنويلي
وفي مَ تطمع ان كلَّفتني شططاً ... وانتَ تعلم ما عزمي وتسويلي
اني لأحسب هذا الثور فيك دجىً ... واحسب العيش حملاً غير محمولِ
مالي وللعيش في الدنيا التي جعلت ... للغير خير وجودي وهي تقسولي
للهِ نفسي وللسلطان فيك دمي ... والعيد قلبي ولي صبري وتأميلي
والمرء بالصبر لا بالصبر علقمهُ ... في هذه الدار يرجو نيل مأمولِ
قلْ للذي قام يجري في معارضتي ... هلاَّ اهتدى بهدى في الدهر مبذولِ
والسعد في الدهر حظ ان ظفرت بهِ ... عفواً وإلاَّ فلا تطمع بتحصيلِ
كم من لئيم سمت اوضاعهُ فزها ... عزّاً وحرٍّ بما يلقاهُ مذلولِ

---

(١) من كتاب حوادث وخواطر للدكتور شبلي شميل